الكرمل

أبحاث في اللغة والأدب

العدد ٢٠

(١٩٩٩)

مراجعات في الكتب

رواية ما بعد الرواية

سعد الخادم، **روايتان مصريتان : الرواية المصرية العظمى / من رحلات أوديسيوس المصري**
Saad Elkhadem *Two Avant-Garde Egyptian Novels: The Great Egyptian Novel/ From Travels of the Egyptian Odysseus*, Toronto, York Press, 1998, 47 , 41 p. (Arabic Literature and Scholarship) ISBN 1--896761-13-5.

"أولا، لكي تصبح عُظمى، يجب أن تكون طويلة. حوالي ألف صفحة، أو ما يزيد". بهذه الجملة تبتدئ الرواية القصيرة **الرواية المصرية العُظمى** من المجموعة الروائية الجديدة للكاتب والباحث المصري سعد الخادم المقيم في كندا. وتُسرد فيها محاولة الراوي في تأليف الرواية القومية المصرية التي يجد فيها كل من القارئ والناقد المصريين مبتغاهما. وعن طريق تيار الوعي يعبر راوي هذا النص الساخر الميتاقصصي (metafictional) عن شتى العناصر والأدوات القصصية التي قد تساعد على نجاح مشروع **الرواية المصرية العُظمى**. وبادئ ذي بدء يتطرق إلى مطالب النقاد المصريين القائلة إن الرواية يجب أن يكون لها موضوع وطني أو قومي، كما أن الراوي يشير إلى إشكالية اللغة، التي – بطبيعة الحال – يجب أن تكون الفصحى التي تستخدم أفخم الأصوات وأجمل القوافي الرنانة. أما في معظمه فيرتكز النص على عرض الحبكات المحتملة التي قد تصلح للمشروع. ومن المفروض، كما يفيد به الراوي، أن تحتل قصة حب المركز لكل نص، وبالتالي تظهر في تدفق تيار الوعي الحبكات، معظمها حكايات الحب المختلفة، التي من خلال أبطالها يتم عرض المشاكل والأوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر. ومنها قضية فلسطين، والفروق الاجتماعية الهائلة، وظروف الانتداب البريطاني، وثورة يوليو، ومشكلة الارتشاء والحروب مع إسرائيل إلى آخره. ويمكننا ملاحظة التشابه بين الشخصيات

التي يرسمها الراوي وبين صور أبطال معروفة في الأدب المصري، مثل البطلة الفقيرة التي تحترف البغاء في السر، أو مالك القصر المستغل للفقراء. وما يضيف إلى سخرية هذه الرواية لسعد الخادم، إلى جانب النقد الصريح للحكومات المصرية، وخاصة حكومة جمال عبد الناصر، هو آراء الراوي حول نهاية الحبكات المقترحة. ويطرح السؤال ما هو الأفضل والأنفع للقصة: النهاية السعيدة أم النهاية الواقعية المؤلمة. وفي نهاية المطاف، بعد أن تطرق الراوي إلى الحبكات المختلفة، يعود إلى سؤاله الافتتاحي: "أرجع إلى موضوعك من جديد. أين كنت؟ نعم ، الرواية المصرية العُظمى".

وبطبيعة الحال تنكر **الرواية المصرية العُظمى** إمكانية تأليف رواية واحدة تصور الظروف في مصر على إجمالها، كما أنها ترمي إلى تحرير الكاتب من التوقعات الوطنية التي قد تدخل إلى نصه. وتتضمن تكنيكيات تيار الوعي وتعدد الزاوية في النص لزوم التحرر من الأشكال السردية التعاقبية التقليدية، كما ويُطلب من الكاتب المساعدة في تهديم الأساطير الوطنية. ويتذوق القارئ للراوية بالتأكيد نقدها لأمثال معينة ومعروفة في الأدب العربي، غير أننا، إذا قارنا بين ما يطلبه النص لسعد الخادم وبين المؤلفات لبعض الأدباء في مصر، فسنجد أن كثيرين منهم قد تنازلوا عن محاولات تأليف الرواية الشاملة وبدؤوا يستخدمون التكنيكيات السردية التي تقترحها رواية سعد الخادم. وراجع على سبيل المثال تكنيك تعدد الزاوية في **البصائر في المصائر** لجمال الغيطاني، أو توظيف العامية ليوسف القعيد في مختلف أعماله.

أما الراوي في النص الثاني للمجموعة بعنوان **من رحلات أوديسيوس المصري**،[1] فهو مصري يقيم في كندا مصاب بورم خبيث في رأسه. ويرقد هذا المصري في المستشفى في انتظار

---

[1] تم نشره سابقًا. راجع مقدمة الروايتين. نشرت **من رحلات أوديسيوس المصري** للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٩٧٩، كما صدرت ترجمتها تحت العنوان "From Travels of the Egyptian Odysseus" في *Three Contemporary Egyptian Novels.* Ed.& trans. S. El-Gabalawi. Fredricton: York Press, 1979.

العملية الجراحية لاستئصال الورم. وتحت تأثير الخوف من الموت المحتمل وبسبب الأدوية المخدرة، يسترجع الرواي، وهو بين النوم واليقظة، في صيغة تيار الوعي، مشاهد وتجارب من حياته، منها هجرته إلى كندا. وهذا أحد المواضيع المهيمنة في أعمال سعد الخادم الأدبية، وهو الهجرة من مصر ووضع المهاجر وتجاربه وآلامه في المنفى[٢]. ويبدو أن أوديسيوس المصري هو نقيض أوديسيوس الأصلي الإغريقي، إذ رحلاته لا تتألف من سلسلة من المغامرات التي تصوغ صورة البطل الأبدية والنموذجية، وإنما هو شخصية عادية وانتهازية، قد لاقت الصعوبات عند مغادرة مصر أيام حكم جمال عبد الناصر. وكانت الهجرة بدوافع مختلفة، بعضها شخصية وبعضها سياسية، حتى الوصول عن طريق ألمانيا إلى أميركا الشمالية. ويهدم مصير الراوي أحلام المهاجر المصري الجميلة، إذ البطل لا ينجح في أي شيء، ولا يسعفه في حالته هذه سوى الاعتماد على زوجته إليزابيث، الممرضة الكندية التي يخونها مع غيرها من أمريكا الجنوبية والتي يكرهها إلى حد أنه يزعم أنها قد سببت مرضه لتتخلص منه. وباختلاف قصة أوديسيوس الإغريقي، التي تصور عودته إلى بيته للاجتماع بزوجته بينيلوبه، يكشف نص **رحلات أوديسيوس المصري** كيف فشلت العلاقات الزوجية المتعددة للراوي، سواء كانت الزوجة من الوطن المصري أم من المنفى في أميركا الشمالية. ويبدو أن الإقامة في المنفى، أو إذا استخدمنا استعارة النص، الرحلات اللامنتهية للبطل، قد أدت إلى تمزق هويته وشخصيته. ويعكس هذا التمزق لغويا تداخل كلمات وعبارات من اللغات الأخرى في سياق افكار الراوي، كما يمكننا تفسير مرضه الذي هو نقطة الانطلاق لتيار الوعي، بأنه التبلور المادي للوضع النفسي المتمزق، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار قرار المريض إعادة تنظيم حياته في حال شفائه، أي بعد استئصال الورم.[٣]

---

[٢] راجع على سبيل المثال **ثلاثية المصري الطائر** للمؤلف: Trilogy of the Flying Egyptian, Fredricton/Toronto, York Press, 1990-1992.

[٣] وبهذا يشبه "أوديسيوس المصري" "المصري الطائر"، الذي يتعدى وضع أوديسيوس إذ هو يروي حياته بعد أن مات.

ومن الملفت للنظر أن سعد الخادم ينشر، منذ وقت طويل، نصوصه في اللغتين العربية والإنجليزية معا، ليوجهها إلى الثقافتين العربية والغربية، موضحا بذلك موقفه كمفاوض على الحدود الفاصلة بين الثقافات المتعددة. ويمكننا ملاحظة التقارب بين سعد الخادم والأدباء الآخرين الذين يحاولون الاندماج في الثقافات الأخرى، وهم يتركون لغتهم الأصلية لصالح لغة المجتمع الجديد. فمن مظاهر فترة الانتقال بين الثقافات التأليف في اللغتين الأصلية والمكتسبة . وعلى الصعيد النظري، فيمكننا أن نفسر هذا الانتقال إلى اللغة والثقافة المكتسبتين كمحاولة "التأقلم من جديد" (re-territorialization) عن الطريق اللغوي مثلما تنص عليه نظريات جيليس ديليوز وفيليكس غواتاري.[٤] ونستطيع أن نفهم، على صعيد النص، رحلات أوديسيوس المصري كأنها محاولات الرُحّل لدخول المركز الدولي. ورمز محاولات الدخول هذه هو علاقات البطل المختلفة والفاشلة مع النساء من وطنه الأصلي ومنفاه.[٥]

ومن الجدير تحليل أعمال سعد الخادم ومقارنتها بمؤلفات مماثلة من الآداب العالمية في الفترة ما بعد الاستعمار التي من مواضيعها الهجرة وامتزاج الهويات والدخول إلى مركز نظام ثقافي جديد.

كريستيان تسيسكا

---

[٤] راجع Gilles Deleuze and Felix Guattari *Anti-Oedipus. Kapitalismus und Schizophrenie.* Trans.: Bernd Schwibs. Frankfurt, Suhrkamp, 1977.

[٥] راجع Gilles Deleuze and Felix Guattari *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia.* Transl.: Brian Massumi. Minneapolis, University of Minneapolis Press,1987.